وعندما يضايقه ذلك الاخر فانه يرمي به الى ارجاء الثقافية والتاريخية · وقد كتب بيـرك سنة ١٩٥٧ يقول : « اجسر على التصريح اليوم بان الفرنسية تظل هي هيلينية الشعـوب العربية » · فما معنى ذلك ؟

ان فعل (Simuler) معناه صنع مثل ، او حاكى ، اي صنع صورة مشابهة او ظلا للشيء المحاكى (Simulacre) · وفي معنى عميق نقول مع احد الباحثين بان « الظل Simulaire ليس نسخة مشوهة ، بل انه يكشف عـن قوة ايجابيـة تنفي الصورة الاصلية والنسخة معا ، كما تنفي النموذج والاستنساخ » (٣) · من ثم يكـون الظـل تخيلا ضروريا للواقع حتى يهتدي هذا الاخير الى ذاته لكن محورا الى ايهام قوي · وهذه العملية التحويرية العجيبة هي خاصية الفن وميزته · الا ان « الظلال » لا تتوفر جميعهـا على نفس الكثافة · وفي مثال جاك بيرك ، فان الامر يتعلق بفن ضئيل يتوخى اخفـاء العرب · انه يريد الاستيلاء على العرب دون ان يستند هو نفسه على اشارة الاب وعـلى نسبه الخاص ، بل عن طريق التكسب بالقول الميتافيزيقي الذي يستبد بمجموع ارجـاء نفس كاتبنا ·

□

تاريخيا ، ترجع كلمة « مستشرق » الى نهاية القرن الثامن عشر · غير ان الكراسـي الاولى لتدريس اللغات الشرقية ، كانت موجودة منذ ١٢٤٥ عقب قرار المجمع الدينـي المنعقد في فيينا (٤) · وتعني هذه الكلمة ، تخصصا جامعيا يهتم اساسا بماضي الشـرق وبلغاته وديناناته · وبصفة عامة ، تميز الاستشراق بمرحلتين : الاولى تمتد من القـرن الثالث عشر الى قيام الحرب العالمية الثانية · وكان هذا النوع من الاستشراق يبحـث اساسا في التاريخ وفقه اللغة والاثنولوجيا ·

وخلال المرحلة الثانية ، التي بدأت منذ فترة وجيزة ، اخذ الاستشراق يندمج في حقـل « العلوم الاجتماعية » ، مع بعض التأخر · وقد عاش بيرك ، « ذلك الصديق للثقافـة العربية » ، هذا الانتقال محاولا تنظيره بطريقته الخاصة ·

ماذا يعني هذا الانتقال ؟

لنعد قليلا الى الوراء : ان جاك بيرك ، المولود سنة ١٩١٠ بالجزائر ، هو ابن لاحـد المسؤولين عن استعمار هذه البلاد · وقد عرف اوغسطيس بيرك ايضا بالرقة التي ميـزت بعض مقالاته القليلة · على ان الاب والابن يكتبان تقريبا بنفس الاسلوب · وكانت ابحاث جاك بيرك تنصب خاصة على التاريخ الاجتماعي للعالم القروي · شـارك مع المهندسـين كولون فـي محاولـة للاصـلاح الفلاحـي اطلق عليهـا اسم « قطاعات لتحديث طبقة من المزارعين » · وكانت الاقامة العامة بالمغرب (اثناء الحماية) قد قررت سياسة زيـادة الانتاج ، متوخية من وراء ذلك ، مواجهة عواقب الحرب العالمية الثانية ، وجفاف سنـة ١٩٤٥ ، والنمو الديموغرافي لسكان المغرب · وهذه السياسة كانت مصحوبة بمحاولـة اعطاء « طابع اجتماعي وتربوي » لمثل ذلك الاصلاح ، حتى يستطاع تكسير عنق الزجاجة ·